الروح والهيترا

للسيد محمد الحريرى

الروح ! وما أدراك ما الروح ؟

مشكلة الاشكالات ، ومعضلة المعضلات ، وطلسم الطلاسم ، والكنز الذى رجع كل من رام فتحه بخفى حنين . هذا كلام فريق من الناس الذين لم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث والخوض فى هذا الموضوع ، محتجين بقوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) زاعمين أن هذه الآية هى كأمر إلهى بعدم الخوض فى ماهية الروح وكنهها ، مكتفين بالايمان بوجودها اجمالا حسب ما جاءت به الكتب السماوية ، وأن البحث عن ماهيتها ضرب من المحال الذى لا تدركه العقول .

أقول : إذا صح فى غالب الناس هذا الاحتجاج ، فانه قد يستثنى منهم فريق ولو قليل ممن قد أشرف على بعض خواص الروح ، من طرق غير التى وقف دونها الأولون بمجرد عقولهم « خصوصاً فى عصرنا هذا الذى فتح فيه لأهل العلم مفازة لما وراء المادة» اعترف بها الآن الغربيون مجبرين ، بعد أن ذكرها الشرقيون تبعاً لما أشار به دينهم الاسلامى، وقد توسع فيها بعض خواص الصوفية الأقدمين باصطلاحات صوفية اجمالية لا تفيد إلا من سلك مسلكهم وشرب من منهلهم، أما الآن وقد تقدم العلم فان فيه من مدهشات ما وراء المادة ما يقرب لغير الصوفية بعض الفهم هذا الشأن الجليل .

وهناك فريق آخر تجرأ على البحث فى كنه الروح بمجرد تصوره المحدود ، ومشاهدته بظاهر حواسه المقيدة .

ففريق الأطباء الغربيين ، قرروا بأن الروح هى الحركة الحيوية الشاملة للدورة الدموية فى الجسم ، وآخرون قرروا بأنها هى الأبخرة اللطيفة المستكنة فى داخل صنوبرية القلب ، والمنتشرة فى سائر أنحاء الجسم . وغيرهم قرروا أن النفس هى الروح وصاروا يبحثون فى آثار النفس الأخلاقية والشهوانية بجميع أنواعها ، واهمين أنهم وصلوا إلى كنه الروح وما هم إلا تائهون فى دياجى ظلمات تلك الآثار والأخلاق والعوائد لبنى الانسان من كل زمان ومكان ، وما أجدر هؤلاء القوم بأن يسموا ما سموه بعلم النفس علم الأخلاق

والعادات فى سائر الشعوب والأمصار ، لأنك لو طالعت كتابا من كتبهم لتعرف حقيقة من حقائق النفس أو الروح ، لخرجت بعد البحث والاستقصاء مع مؤلف هذا الكتاب بنتيجة خلقية فى كل اختلاط مع الغير من آثار النفس فى شتى الانفعالات من غضب وفرح الخ مما أوضحوه ، دون أن تصل إلى نقطة البحث وهى ماهية الروح والنفس .

والحق الذى لا نزاع فيه ، أن الروح هى شىء خارج عن المادة المعقولة ، وغير خاضع لنواميس تلك المادة ، ولا يستطيع العقل بتركيبه المعهود أن يحيط بجزئية من حقيقتها فضلا عن كنهها اذ نفس هذا الفكر هو أثر من آثارها ، وهى المفيضة عليه بموهبة التعقل فكيف يحيط الفرع بالأصل مع خضوع القوى المفكرة لنواميس المادة وخروج الروح عن تلك النواميس ؟

إلا أنه قد يكون فى حيز الامكان ، الالماع إلى ذات الروح بحاسة غير الحواس المعلومة وبادراك غير إدراك العقل ، أو بمعنى أوضح تعلم الروح بنفس ذات الروح فى إحدى حالات سبحاتها وتشععها من الجسم فى انطلاقاتها وتطوراتها التى جاءت مجملة على ألسنة الصوفية الأقدمين ، دون أن يجدوا من الألفاظ اللغوية والقياسات العلمية ما يمكنهم من تقريب تفهيم كنه الروح لغيرهم .

وسنورد بعضاً من أقوال هؤلاء الصوفية الماضين ، ثم نقارنه بما جد من الاختراعات الحديثة ، مخرجين من بين تلك المقارنة نتيجة تقريبية لتفهم تلك الماهية لمن لم يكن له نصيب فى الانطلاق الروحى .

قال الامام الغزالى عند ما سئل عن ماهية الروح فى كتابه «المضنون به على غير أهله» «إن الروح ليس بجسم ولا عرض ، بل هو جوهر غير منقسم ، قائم بنفسه غير متحيز ، لا هو داخل ولا هو خارج ، ولا هو متصل بالجسم ولا منفصل ، لأن الاتصاف بالانفصال والاتصال والتحيز ، هو للجسمية . وقد انتفت عن الروح ، وذلك ببراهين ثابتة لاجدال فيها ، وأول دليل على أن الروح مخالف لناموس المادة ، أنها تكون فى مكانين مختلفين فى وقت واحد بدليل رؤية النائم فى الرؤيا أنه فى جهة ما يفعل من تلذذ وتألم ، وفى الوقت نفسه جسم هذه الروح موجود فى مكانه النائم به حى ، مما يؤكد أن الروح فيه حالة وجودها فى المكان الآخر ، مما يثبت أن الروح بحكم فطرتها التى فطرها الله سبحانه وتعالى ، لا تحصر فى مكان

كما تحصر المواد . وبما أنه ثبت أنها ليست بمادة فهي غير فانية أو متلاشية ، أى أنها خالدة وقد أجمع الاقدمون على خلودها . أما فيما يختص بخلقها فقد نبه الامام الغزالى الى انها غير مقدرة بكمية ومقدار كالمواد ، لأنها غير خاضعة لنواميس المادة ، وهذا لا ينافى أنها مخلوقة بتقدير ينافى تقدير المادة المعلوم ، وأن لها ابتداء كما جاء فى حديث « إن الله خلق الأرواح قبل الأشباح بألفى سنة » .

وقد ذكر ذلك الامام الجيلى فى كتاب « الانسان الكامل » والأستاذ الدباغ فى كتاب «الابريز» — عند ذكر البرزخ ، وكذلك الامام العظيم محيي الدين بن العربى فى كتاب « الفتوحات المكية » بتعبيرات وألفاظ ترجع كلها فى الحصر الى ما أورده الامام الغزالى . إلا أنهم قد زادوا فى بعض ايضاحاتهم عن خصوصيات الروح وتطورها ، وقوة تأثيرها فى الاكوان وغرائب تطوراتها التى يقصر عن ادراكها أعظم عقل ، والتى تقرر أخيراً كثير من أشباهها فى عالم الروحانية الحديثة ، فى مجتمعات علمية فى أوربا وأمريكا ، على يد فطاحل العلماء من الذين لا يؤمنون إلا بما يشاهدون ويمحصون ، واضطروا أخيراً مقتنعين بأن وراء المادة قوة فعالة غير خاضعة للنواميس المعلومة .

كل هذا لم يوصلنا لمعرفة ماهية الروح وهل يمكن مشاهدتها بتلك الحواس الجثمانية أم لا ؟

***

للدخول فى هذا الموضوع طريقان : طريق قديم وهو طريق الصوفية المعلوم من خلوة ورياضة ، وهذه بالأسف لا يمكن لمن اندمج فيها أن يعبر لمن لم يندمج الا بأشياء لا تغنى من جهة الاقناع ، ولا تسمن من جوع .

وأما الطريق الآخر الحديث ، فهو نتائج بحث الروحانية وأثرها مضافاً اليها نتائج وبحث ماوراء المادة : كالكهرباء والمغناطيسية والراديوم وأشعة رنتجن وما شابه ذلك من الأشياء التى نرى آثارها ولم يبين العلم الحديث ماهية وكنه هذه العناصر .

وسنتحدث إلى قراء « المعرفة » الغراء فى العدد القادم إن شاء الله ، عن الطريقين والله ولى التوفيق ؟

محمد الحريرى
بالنيابة العمومية